الفصل العاشر

التصريح

فأثر ذلك التوبيخ في نفس لمياء تأثيرًا شديدًا ورأت قولها معقولا ولكن قلبها لم يطاوعها على العمل به ولا طاوعها عقلها على الرفض. وهي مع ذلك لا تعلم أين هو سالم. ميت أو حي ولم تر فرجًا من تلك الحيرة إلا بالبكاء فجاشت خواطرها وهمت بالبكاء ثم أمسكت عواطفها تجلدًا وسكتت وهى تبلع ريقها وتغالب نفسها وقد أطرقت لا تبدى حراكا.

وأظهرت أنها تتفرس في جلد أسد مفروش هناك.

فلم تبال أم الأمراء بسكوتها فأتمت كلامها قائلة: «ومع ذلك فقد سمعت قائدنا جوهر يطرى شجاعتك وثباتك في حومة الوغي.. فمالى أرى فيك هذا الضعف الآن؟».

فلم تعد لمياء تستطيع التمالك فتنهدت تنهدًا شديدًا ورفعت عينيها إلى أم الأمراء والدمع يتلألأ فيهما وجلست جثوًا على سبيل التأدب وقالت وهى تغص بالكلام: «لقد غمرتني بلطفك يا سيدتي.. إني لا أستحق هذا الالتفات ... نعم لا أستحق النعمة التى تعرضينها علي ولكنني.. آه ... لا أملك قياد قلبى.. سامحيني على التصريح لك. لقد رأيت من عطفك ولطفك ما يخولني الدالة عليك وأن خالفت العادة والطبع أني يا مولاتي لا أملك من قياد نفسى شيئًا. نعم إني شجاعة في الحرب لا أهاب لقاء الأبطال ولكنني مع سالم ضعيفة.. لا أذكره إلا وأشعر بانحلال عزائمى وخفقان قلبى.. ألعل ذلك ما يعبرون عنه بالحب؟ وقد سألتني إذا كان يحبنى فكيف يمكن أن لا يكون كذلك وأنا لا أرى للحياة قيمة بدونه ...» ولما وصلت إلى هنا انتبهت لنفسها وأحست أنها تورطت في التصريح بما لا يجوز لمثلها وإنما غلبت على عواطفها فلم تملك إمساك هواها. وخجلت من أم الأمراء فحولت وجهها نحو الحائط وأخذت في البكاء وقد بكت هذه المرة أسفًا على ضعفها وتطلعًا إلى رؤية حبيبها سالم وهى لا تعلم أين هو. أما أم الأمراء فاستغربت

تعلق لمياء بخطيبها ولم تكن تتوقع أن ترى منها ثباتًا وشغفًا إلى هذا الحد. فلما آنست منها ذلك قالت: «يسرني يا بنية أنك تحبين خطيبك إلى هذا الحد فإن المحبة من أكبر النعم. وأطلب إلى الله أن يجمعك به وإذا رأيت أني قادرة على مساعدتك في ذلك قولى ... أما الحسين فأنى استمهله لنرى ما يكون — إذ لا يعلم ما في الغيب إلا الله ...».

فهمت لمياء بتقبيل يدها شكرًا على صنيعها فأبت عليها ذلك وقبلتها برأسها ونهضت وهى تقول: «قد تعودت أن أذهب في مثل هذه الساعة إلى مقعد لي يشرف على قاعة أمير المؤمنين التى يقابل الناس فيها أطل عليها من وراء حجاب فأشاهد مجلس الأمراء وأسمع ما يدور بينهم انى كثيرة الاهتمام بشؤون الدولة..».

فأعجبت لمياء بعلو همتها وقالت: «سمعت بذلك عنك» وقد سرها أن تبدأ هى بالعزم على ذلك ومالت إلى مرافقتها فقالت: «وهل ترين بأسًا من أن أكون معك؟».

قالت: «كلا.. وبالعكس فأنى استأنس بك».

ومشتا في دهليز إلى غرفة في أحد جدرانها مقعد على دكة يصعد إليه ببضع درجات وراءه ستر يحجبه. وفى الستر ثقوب إذا شاء الجالس أن يشرف على من في القاعة الكبراء رآهم وسمع أقوالهم. فتناولتها أم الأمراء بيدها حتى أجلستها بجانبها على المقعد وقالت لها: «أنظرى من هذا الثقب» فنظرت فإذا هى تشرف على مجلس الخليفة من أعلى الحائط بحيث ترى الجلوس هناك ولا يرونها.

رأت قاعة واسعة قد فرشت أرضها باللبود البسيط وقد جلس المعز لدين الله في صدرها على منصة كالوسادة الصغيرة وهو في لباس بسيط بالنسبة إلى سواه من الملوك والخلفاء. على رأسه العمامة وعلى كتفيه برنس كالعباءة يغطى أثوابه. وقد التف به واقعد الأربعاء قعود من أتعبه العمل فتربع وألقى كوعيه على فخديه. وإلى جانبه حسام مغمد وفى يمينه قلم. وفى يساره ورقة من الكاغد ينظر إليها وكاتبه واقف أمامه ينتظر أمره فبعد أن تأمل الورقة وضع القلم بجانب دواة بين يديه ودفع الورقة إلى الكاتب وأشار إليه أن يذهب. ثم تنفس الصعداء وقال: «إذا شاء الأمراء والمشائخ الدخول فليتفضلوا».

فلما سمعت أم الأمراء قوله قالت للمياء: «أنه يدعو مشائخ كتامة وصنهاجة وهوارة وهم رجال دولته من أمراء البربر لعله يريد النظر في أمر هام».

فسرت لمياء لهذه الفرصة لترى كيف يعقد مجلس الملوك. على أنها ما لبثت أن رأت جماعة من المشائخ والأمراء دخلوا وألقوا التحية بصوت عال كالعادة. وأشار إليهم المعز

فقعدوا على وسادات مثل وسادته محيطة بالقاعة. وجعلت لمياء تتفرس فيهم فرأت بينهم وجوهًا تعرفها من قبل ولما استقر بهم الجلوس جعل المعز يرحب بهم وهم يدعون له ثم قال: «قد تكبدتم المشقة في المجيء إلينا وإنما دعوتكم لأريكم حالى من العمل. إذ قد يتصور بعض الذين لا يعلمون أن الإمامة من أسباب الراحة والتنعم والانقطاع عن العمل. نعم هى كذلك لمن شغلوا بالترف عن مصالح الدولة كما يفعل صاحب بغداد وصاحب قرطبة وأمراؤهم في الأطراف. لأن الدنيا شغلتهم عن الإمامة الحقة فانغمسوا بالملذات وتقلبوا في المثقل والديباج والحرير والسمور والمسك والخمر مثل سائر أرباب الدنيا. وأما أنا فقد أحببت استقدامكم لأريكم كيف ينبغى أن يكون الإمام: أنظروا إلى هذا الكساء والجبة وها أنا جالس على اللبود وهذه الأبواب مفتحة تفضى إلى خزائن الكتب وأنا اشتغل بمكاتبة الأطراف بيدى لا ألتفت إلى أمور الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويقمع أضدادكم فافعلوا يا شيوخ في خلواتكم مثل ما أفعله ولا تظهروا التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلهما إلى غيركم».

فتصدى شيخ منهم أكبرهم سنا وقال: «يا أمير المؤمنين قدوتنا ونعم المثال هو».

فقال: «إذا فعلتم ذلك يقرب الله منا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب.. انهضوا رحمكم الله ونصركم».

فوقفوا وحيوه وخرجوا وقد امتلأت قلوبهم هيبة ولمياء تعجب لسرعة صرفهم وأدركت أم الأمراء فيها ذلك فقالت: «لا بد لسرعة صرفهم من سبب فقد تعودت أن أجلس هنا ساعات أسمع مباحثاتهم في أهم الأمور».

ولم تتم كلامها حتى سمعت المعز يصفق وهو يقول: «خفيف!» فحضر غلامه فقال: «ذكرت لي منذ هنيهة أن قائدنا يحب أن يرانا على حدة فأسرعنا في صرف شيوخ كتامة لنتفرغ له. أدعه».

فخرج الغلام وهمست أم الأمراء قائلة: «هذا هو السبب في سرعة صرفهم.. أن جوهر قادم إليه.. لله دره من رجل باسل».

فلما سمعت لمياء اسمه تذكرت أنها رأته ذلك اليوم في الحديقة مع أبيها وخطر لها أنها رأته أيضًا مع ابنه الحسين فخفق قلبها لأنها أصبحت تخاف أن تراه بعد أن دار ما دار بينها وبين أم الأمراء بشأنه وتخاف إذا تكرر الترغيب فيه أن يخونها قلبها فتميل إليه وهى لا تريد أن يكون لأحد نصيب من فؤادها غير سالم.